اتخاذ الهجرة مبدأ للتأريخ عند المسلمين

للدكتور مهدى علام

جدير بنا - نحن المسلمين في جميع أرجاء المعمورة - أن نقف اليوم وقفة تدبر وإمعان لنتبين السر العظيم الذي هدى أسلافنا الكرام إلى اتخاذ هجرة الرسول، عليه الصلاة والسلام مبدأ للتأريخ . وقد كان أمامهم نقط ابتداء هامة متعددة يستطيعون اتخاذ إحداها مبدأ للتأريخ الإسلامى وسأتناول في هذا المقال بحث هذا الموضوع . بعد تمهيد موجز عن بيان النظم السابقة التى كانت الأمم المختلفة تتبعها في ضبط تأريخها .

فمنذ أقدم العصور ، شعر الناس ، أفرادا وجماعات ، بحاجتهم إلى التأريخ ، أى إلى نسبة الأحداث والأعمال إلى نقطة زمنية يحسبون منها مرور الزمن . بمقياس يصطلحون عليه . بوصفه وحدة قياس زمنية ، كاليوم أو الأسبوع أو الشهر أو العام . وكانت ظاهرة النهار والليل أسبق الظواهر التى استرعت انتباه الإنسان إلى أول وحدة زمنية دقيقة هى اليوم . كذلك كانت المجتمعات الأولى في تاريخ البشر تهتم اهتماما خاصا بظهور القمر وتتبع نموه منذ ظهوره هلالا ، إلى أن يستدير بدرا ، ثم يتناقص في محاقه إلى أن يختفى ، ليعود مرة أخرى في دورته الزمنية المنظمة . فكانت هذه الظاهرة القمرية أساسا لوحدة زمنية أخرى هى الشهر ، وبذلك كان الشهر القمرى من أسبق الوسائل التى اتخذها الإنسان لعد أيامه ، وتبعا لذلك كان السبق للتقويم القمرى . ومن الدلالات اللغوية على ذلك الاشتراك في الاشتقاق ، أو الترادف ، بين الألفاظ التى تدل على الهلال والقمر ، والألفاظ التى تدل على الشهر ، فى كثير من اللغات (١) .

على أنه جاء بعد ذلك عهد على الإنسان تنبه فيه إلى الدورة الشمسية . فاتخذ الشهر الشمسى والسنة الشمسية أساسا لحساب الزمن .

وفى كل من الحالتين السابقتين : حالة الاعتماد على التوقيت بالدورة القمرية . وحالة الاعتماد على التوقيت بظاهرة الدورة الشمسية لم يكن ثمة بد من نقطة يبتدىء بها التأريخ . وفى العهود السحيقة فى تاريخ الإنسان ، قبل اختراع الكتابة ، لم تكن الذاكرة تعى أكثر من مدة قصيرة لا تتجاوز بضع سنوات

(١) يراجع فى ذلك على الأخص اللغات العربية . والعبرية واللاتينية . والفرنسية ، والإيطالية ، والأسبانية ، والانجليزية ، والألمانية .

ولهذا كانت المدة التى يحتفظ بها الناس فى ذاكرتهم مدة قصيرة ، ثم يتركونها وينتقلون إلى مدة أخرى يبدءون التأريخ بها لارتباطها بحادثة هامة فى حياتهم . ويظلون يحتفظون بسنواتها حتى يحدث حادث عظيم آخر يفرض نفسه على ذاكرتهم ، ويخفف عنهم عبء العدد الكبير من السنين المنسوبة إلى الحادثة السابقة ، وعندئذ يبدءون تأريخهم من هذا الحادث العظيم الجديد ويستمرون فيه حقبة أخرى ، وهكذا .

وهذه الأحداث التى كان الناس قديما يلجئون إليها نقطا لبدء حقبهم التأريخية ، كانت تختار فى العادة من بين الحوادث الجسام التى تغير مجرى الحياة فى المجتمع ، أو من النوع الذى يخلف ذكرى قوية لا تنسى . فالفيضانات الجتاحة ، والزلازل المفزعة ، والبراكين المدمرة ، والحروب الرهيبة ، وتعاقب الملوك على العروش ، كل هذه أمثلة مما كان يتخذه الإنسان نقطا يبدأ بها حقبه التأريخية . ونحن ما زلنا نجد صورة مصغرة لهذا النوع من التأريخ بين بعض معاصرينا ، ممن يؤرخون بمضى كذا من الزمن على ثورة عرابى ، أو على العام الذى حجوا فيه ، أو على السنة التى تزوج فيها فلان من أسرتهم .

وفى طفولة البشرية لم يكن الإنسان يهتم ، أو لم يكن يستطيع أن يهتم ، بالدقة فى حساب التاريخ ، أو بربطه ربطا دقيقا بنقطة زمنية ثابتة ، بل كانت الأمور تسير سيرا تقريبيا ومن المعروف أن أول من ابتكر نظاما للتأريخ المنظم المتواصل هو أمين مكتبة الإسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، حتى إنه اكتسب ، بسبب ذلك ، لقبا هو : « أبو التأريخ » .

ومن أمثلة النظم التى كانت متبعة فى التأريخ ، النظام الأولمبى فى بلاد اليونان ، فقد كانت الألعاب الأولمبية تقام مرة كل أربع سنوات فكانوا يؤرخون أحداثهم بأن يقولوا مثلا : حدث هذا فى السنة الثانية من الأولمبية الرابعة ، وهكذا .

ومن هذه النظم القديمة النظام الرومانى . وكان هذا النظام يتخذ تأسيس مدينة روما مبدأ للتأريخ ، تنسب إليه الأحداث . وتعاقب القناصل والأباطرة .

ثم كان هناك نظام التأريخ الفارسى ، الذى كان يبدأ باعتلاء الملك يزدجرد الثالث للعرش (يوم ١٦ يونية سنة ٦٣٢ ميلادية) ، وهو نظام شبيه بالنظام الصينى القديم ، الذى كان يبدأ من سنة ١٦٣ ق . م ، وبعد السنوات منسوبة إلى اعتلاء كل إمبراطور للعرش . فكانت مدة حكم كل إمبراطور تحدد حقبة تاريخية تبدأ بذلك الحكم وتنتهى بانتهائه .

وكان العرب قبل الإسلام يسيرون كغيرهم من الأمم المتبدية ، فيؤرخون بالأحداث

العظيمة التي تمر بهم وتؤثر في حياتهم، كأيام العرب المشهورة في حروبهم، والتي من أشهرها عام الفيل، الذي ظلوا يؤرخون به حتى ظهور الإسلام، وكذلك حرب الفجار وغيرها.

وبعد ظهور الإسلام اتخذ المسلمون عدة نقط زمنية بدءا لتأريخهم. فتارة كانوا يقولون: حدث كذا قبل البعثة بسنة أو بسنتين. أو بعدها بكذا سنة. وأحيانا كانوا يؤرخون بالغزوات، فيقولون: في عام الخندق. أو بعد بدر بعامين، وهلم جرا.

وكان هذا النظام كافيا للتحديد الزمني الذي كانت تتطلبه حياة المجتمع يومئذ. فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتشعب نشاطها، كان لا بد لها من نظام ثابت للتأريخ، ينسب إلى نقطة زمنية ثابتة، وتتبعه الدولة في جميع أنحائها، فإن من دواعي الخلط، وعدم الدقة في تحديد أزمنة الأحداث، أن يكتب الخليفة مثلا إلى وال في الشام كتابا يؤرخه بالسنة السابعة والعشرين من البعثة النبوية، فيرد عليه الوالي بكتاب يؤرخه بسنة كذا من بدر.

وأول من فكر في اتخاذ نظام ثابت للتأريخ في الإسلام هو سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وكان ذلك جزءا من تنظيماته العامة للحكومة الإسلامية. ففي السنة الثالثة من خلافته، أي في السنة السادسة عشرة من الهجرة النبوية، رفع إليه صك مؤقت بشهر شعبان. فقال: أي شعبان هو؟ الذي مضى، أو الذي هو آت، أو الذي نحن فيه؟

ثم جمع أصحابه وقال لهم: ضعوا شيئاً للناس يعرفونه. فقال قائل: اكتبوا على تاريخ الروم. وقال آخر: اكتبوا بتاريخ الفرس. كلما قام ملك طرح ما كان قبله (أي ترك النقطة الزمنية التي كان يؤرخ بها، وبدأ نقطة زمنية أخرى من تاريخ اعتلائه هو للعرش).

وتناقش القوم في الأمر. وكان أمامهم من أحداث الإسلام ما يغنيهم عن اصطناع النظم الأجنبية: كان أمامهم لنقطة البدء بالتأريخ مولد النبي صلى الله عليه وسلم. كما كان أمامهم يوم وفاته. وكان لديهم كذلك يوم بعثته بدين الإسلام. ولكن رأيهم استقر على أن يتخذوا لتأريخهم يوم الهجرة من مكة إلى المدينة، وهو اختيار أوحته البصيرة النافذة، والتقدير السليم لحوادث التاريخ. فلقد كانت الهجرة هي أعظم حدث في تاريخ الإسلام. لأنها الحادثة التي جمعت أنبل الصفات التي دعا إليها الدين، كما تمثلت فيها معجزة الإسلام الكبرى. فقد كانت الهجرة هي نقطة التحول في ذيوع الإسلام، وخروجه من شعاب مكة، إلى أرجاء الجزيرة العربية، ثم إلى سائر أجزاء المعمورة.

والذين قرروا اختيار هذا اليوم مبدأ

للتأريخ هم الذين شاهدوه وشاركوا فى أحداثه : هم المهاجرون والأنصار الذين تجلى فيهم إبان الهجرة خير ما تتحلى به النفوس البشرية . تجلى فيهم الافتداء حين تحدى المهاجرون سطوة كفار قريش وبطشهم وتنكيلهم بهم لمغادرتهم مكة . وتجلت فيهم التضحية المنقطعة النظير حين تخلوا عن أهلهم وديارهم وأموالهم فى سبيل الله . وتجلى فى ذلك اليوم الإخاء الصادق والسماحة الشاملة حين استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين استقبال الأخ لأخيه ، وقاسموهم كل ما ملكت أيديهم : فهؤلاء الأنصار هم الذين تهافتوا على الرسول الكريم يوم قدومه للمدينة يقول له كل بيت فيهم : أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة . فلما عز عليهم جميعاً أن يقاسموا النبي بيوتهم ، قاسموها أصحابه المهاجرين .

ومن أروع ما يدل على ما كان يفيض به جو الهجرة من الكرم والسماحة أن التاريخ لم يذكر عن هؤلاء الذين تركوا مكة ولجئوا إلى المدينة أنهم « لاجئون » . لقد كرمهم الله تعالى بما كرمهم به الأنصار بتسميتهم بالمهاجرين وكرم الله تعالى هؤلاء وأولئك بما أنزله فيهم من القرآن الكريم : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم » .

أما معجزة الإسلام الكبرى التى تمثلت فى حادثة الهجرة فهى أنه فى تلك الساعة التى كان الإسلام فيها مضطهداً طريداً من وطنه ، حقق أعظم انتصار لرسالته . وكذلك كانت قوة الإسلام دائماً ، يرفع علم انتصاره حتى يوم اضطهاده ، وتعلو كلمته ، حين تعظم محنته ، ويقبل عليه الناس حتى إبان العدوان عليه . ومن هذه القوة الروحية العظيمة استمد سلطته السياسية ، ونشر لواء العدل والمساواة فى العالم .

وبعد فقد كانت الهجرة فى اليوم الثامن من ربيع الأول ، الموافق لليوم العشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وبدأ التأريخ بها فى اليوم السادس عشر من شهر يوليه سنة ٦٣٩ ميلادية .

وفى هذه الذكرى السامية تتحرك فى نفوسنا تلك العزة التى استمسك بها أسلافنا الكرام ، فى نفوسهم الأبية ، وقلوبهم الصفية ، وعقولهم الرشيدة ، وأحكامهم السديدة . لنستلهم من ذلك كله منهجاً يهدينا إلى سواء السبيل : إصلاحاً لنفوسنا بهدى الدين القويم وشحذاً لعزائمنا بالصمود فى وجه أعدائنا ، واستنهاضاً لقوانا لاسترداد مقدساتنا الإسلامية ، وأرضنا العربية العزيزة .

مهدى علام